

غلهاء

إلياس أبه شبكة



غلواء

تأليف
إلياس أبو شبكة



رقم إيداع ٤٨٧٧ / ٢٠١٤

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٧١٨ ٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: محمد الطوبجي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2017 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٩	العهد الأول
٢٥	العهد الثاني
٣٩	العهد الثالث
٤٩	العهد الرابع

كتبت «غلواء» بين ١٩٢٦ و ١٩٣٢ وليس فيها من حياة المؤلف في مطلع شبابه إلا شطر ضئيل، فهي في مجموعها من صنيع الخيال لا من صنيع الواقع. وعبثاً يحاول القارئ، ولو طال الزمن ومهما يطل، أن يجد في «غلواء» مستنداً لظن أو موضوعاً لاجتهاد؛ فهي حياة جماعة لا حياة فرد، هي الحياة وليست حياةً، هي قصيدة لا تاريخ.

تشرين الثاني ١٩٤٥

العهد الأول

المريضة

١

مَا أَسْلَمَ الْقَلْبَ وَأَصْفَى السَّمَرَ
وَأَهْنَأَ الشُّتَاءَ فِي تِلْكَ الْقُرَى
وَأَطْوَلَ اللَّيْلَ بِهِ وَأَقْصَرَ!
تَجْرِي اللَّيَالِي عَذْبَةً كَالسَّاقِيَةِ
يُضْنُ مِنْهَا بِاللَّيَالِي الْبَاقِيَةِ
كَأَنَّهَا بَقِيَّةٌ مِنْ عَافِيَةٍ
فِي لَيْلَةٍ لِطُولِهَا وَسُنَانَةٍ
وَالْأَرْضُ مِمَّا شَرِبَتْ نَشْوَانَهُ
عَادَ فَالْفَى أُمُّهُ سَهْرَانَهُ
فَقَالَ: «مَا عَوَّدَكَ اللَّيْلُ السَّهْرَ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا سَاعَتَانِ لِلْسَّحَرِ
... أَقْرَأُ فِي وَجْهِكَ، يَا أُمُّ، خَبْرُ
غُلُوٍّ؟ مَا حَلَّ بِهَا؟ ... شَقِيَّةُ!
أَمَا تَبْقَى لِلرَّجَا بَقِيَّةُ؟
مُسْكِينَةٌ! وَيْلُ امِّهَا، صَبِيَّةُ!

وَحَاوَلَ النَّوْمَ بِدُونِ جَدْوَى
كَأَنَّ فِي عَيْنَيْهِ قَلْبًا يَهْوَى
وَقَلْبُهُ كَانَ بَرِيئًا خُلُوا
وَأَنْتَقَلَ أَنْتَقَالَ عَجِيبُهُ
مَنْ أَلَمَ الرُّوحَ إِلَى غَيْبُوبِهِ
كَشَعْلَةٍ فِي نَفْسِهِ مَشْبُوبُهُ
طَوْرًا يَرَى غُلُوءًا فِي صَبَاهَا
تَشِعُّ فِي وَجْدَانِهِ عَيْنَاهَا
مَمْقُودَةَ الْحُسْنِ عَلَى رِيَاهَا
وَتَارَةً فِي كَفَنٍ مُلْتَقَفُهُ
يُسْرِحُ الْمَوْتُ عَلَيْهَا كَفَّهُ
بِحَسْرَةٍ عَاطِفَةٍ وَلَهْفِهِ
بَارِزَةً مِنْ فَمِهَا الْأَسْنَانُ
مُزْرَقَةً كَأَنَّهَا دِيْدَانُ
وَاللَّيْثَةُ الْحَمْرَاءُ زَعْفَرَانُ
ذَاتُ شُحُوبٍ رَاعِبٍ رَهِيْبٍ
كَأَنَّهُ لَوْنٌ مِنَ الذُّنُوبِ
أَوْ نَفْسٌ مِنْ صَدْرِهَا الْمَكْرُوبِ
وَكَانَتْ الظُّلْمَةُ فِي أَشْجَانِ
وَالرَّيْحُ كَالْمِبْرَدِ فِي الْأَبْدَانِ
وَاللَّيْلُ فِيهَا كَضَمِيرِ الْجَانِي
وَلَمْ يَكَدْ مِنْ حُلْمِهِ يُفِيْقُ
حَتَّى اعْتَرَاهُ خَدَرٌ عَمِيْقُ
وَجَنَّ فِي دِمَاغِهِ الْعُرُوقُ
فَأَبْصَرَ الْمَرِيضَةَ الْمُحْتَضِرَةَ
مَسْدُولَةَ الذَّوَائِبِ الْمُبْعَثَرَةَ
جَنِيَّةً هَائِمَةً فِي مَقْبَرَةِ

* * *

وَحَلَّ فِي أَهْدَابِهِ تَابُوتُ
فِي قَلْبِهِ صَبِيَّةٌ تَمُوتُ
تَمُوتُ فِي غَيْبُوبَةٍ وَسَكْرَةٍ
لَهَا مِنْ الْعُمْرِ ثَمَانِي عَشْرَةَ
وَعِنْدَمَا أَفَاقَ مِنْ رُؤْيَاهُ
وَحَدَّقَتْ إِلَى الدُّجَى عَيْنَاهُ
رَأَى نِيَامًا كُلَّ مَنْ فِي الدَّارِ
إِلَّا عُيُونَ الْهَرِّ ذَاتَ النَّارِ

٢

أَمِنَ الْعَدْلُ خَالِقَ الْأَنْوَاحِ
أَنْ يَغِيبَ الْجَمَالَ قَبْلَ الصَّبَاحِ؟
أَمِنَ الْعَدْلُ أَنْ يَرَى الْقَلْبُ عَطْشًا
نَ، وَخَمْرُ الْقُلُوبِ فِي الْأَقْدَاحِ؟
أَمِنَ الْعَدْلُ أَنْ تَجُولَ عُيُونُ
فِي ظَلَامٍ وَالزَّيْتُ فِي الْمِصْبَاحِ؟
إِنْ تَكُنْ تَحْرُمُ الطُّيُورَ سَمَاهَا
فَلِمَذَا خَلَقْتَ رِيَشَ الْجَنَاحِ؟

* * *

وَتَنَاءَتْ عَيْنَاهُ فِي الشَّفَقِ الْأَخْضَرِ
فَانْخَطَطْنَا عَلَى فَلَاحِ
يَحْرُثُ الْأَرْضَ هَادِنًا مُطْمَئِنًّا
فَيَشْقُ الْأَتْلَامَ كَالْجِرَّاحِ

* * *

قَالَ: طُوبَى لَهُ وَطُوبَى لِنَفْسِهِ
مَا أَلَذَّ الصَّفَاءِ فِي مَاءِ كَأْسِهِ!
مَا أَغَزَّ الْأَعْشَابَ حَوْلَ سَوَاقِيهِ
وَأَغْنَاهُ فِي قَنَاعَةِ بُوْسِهِ
لَا يَرَى غَيْرَ حَقْلِهِ إِنْ أَطَلَ الْفَجْرُ
أَوْ أَقْبَلَ الْمَسَا غَيْرَ أَنْسِهِ
جَاهِلٌ يَجْهَلُ الْقِرَاءَةَ فِي الْأَسْفَارِ
لَكِنَّهُ حَكِيمٌ بِفَأْسِهِ
عَدُهُ مِثْلُ يَوْمِهِ، لَيْسَ يَغْشَاهُ شَقَاءٌ،
وَيَوْمُهُ مِثْلُ أَمْسِهِ

* * *

لَيْتَ لِي قَلْبُهُ الْخَلِي
لَيْتَ فِي الرُّوحِ لِي تُقَاهُ
لَيْتَ فِي مُقْلَتِي لِي
مُقْلَتِيهِ ... وَاحْشُرَتَاهُ!
فَأَرَى الصُّبْحَ يَنْجَلِي
عَنْ شُعَاعِ مَنْ الْخَلِي
ذَهَبِيٍّ مُكَلَّلٍ
بِلُجَيْنٍ مِنَ الْمِيَاهِ
وَأَرَى اللَّهَ كُلَّمَا
أُرْسِلَ الطَّرْفُ فِي السَّمَاءِ
إِنَّ فِيهَا لِمَنْ سَمَا
بِالتَّقَى صُورَةَ الْإِلَهِ

غَلَوَاءُ، مَا أَحْلَى اسْمَهَا الْمِعْطَارَا،
 صَبِيَّةٌ تَغِيْطُهَا الْعِذَارَى
 لَا يَسْتَطِيعُ شَاعِرٌ أَنْ يُبْدِعَا
 قَصِيْدَةً أَجْمَلَ مِنْهَا مَطْلَعَا
 تَصَوِّرُ الْأَزْهَارَ فِي نَوَارِ
 تُنْعِشُهَا ارْتِعَاشَةُ الْأَنْوَارِ
 تَصَوِّرُ النَّسِيمَ فِي الصَّبَاحِ
 يَهْزُ سَاقَ الْفُلِّ وَالْأَقَاحِ
 تَصَوِّرُ السَّمَاءَ فِي رُؤَايَهَا
 كَأَنَّهَا الْأَحْلَامُ فِي صَفَائِهَا
 تَصَوِّرُ الْأَعْشَابَ فِي الْجِبَالِ
 تَحْلُمُ فِي مَهْدٍ مِنَ الظَّلَالِ
 تَصَوِّرُ الرَّابِيَةَ الْجَمِيلَةَ
 لَوْنَهَا ظِلٌّ مِنَ الْخَمِيلَةِ
 وَكُومَ الثَّلْجِ عَلَى الرَّوَابِي
 تَطْفُو عَلَيْهَا صُفْرَةُ الْغِيَابِ
 وَانْظُرْ أَخِيرًا نَظْرَةً سَرِيعَةً
 مُخْتَلَفَ الْجَمَالِ فِي الطَّبِيعَةِ
 تَعْرِفْ إِذَنْ مَعْرِفَةً عَلِيَاءَ
 كَيْفَ السَّمَاءُ أَبْدَعَتْ غَلَوَاءَ
 وَكَانَ فِي صُورِ لَهَا قَرِيبَهُ
 أُعْطِيَتْ اسْمَ الْوَرْدَةِ الْحَبِيبَةِ
 جَمَالُهَا يَحْمِلُ لِلْجُنُونِ
 وَمِیْضَةُ الشَّهْوَةِ فِي الْعُيُونِ

تَشْعُرُ، مِنْ جَسَدِهَا الْمُشْتَعِلِ،
 فِي كُلِّ عِرْقٍ بِدِمَاءِ رَجُلٍ
 تَصَوِّرُ الْبُرْكَانَ فِي ثَوْرَتِهِ
 تَنْقِذُفُ النَّيِّرَانِ مِنْ فُوهَتِهِ
 كَالْمَرَاةِ الْبَغِيِّ فِي مُقْلَتِهَا
 عُنْصُرُ نَارٍ قَدْ مِنْ شَهْوَتِهَا
 تَصَوِّرُ الْمَوْتَ بِنَابِ أَفْعَى
 مُرِيْبَةٍ بَيْنَ زُهُورٍ تَسْعَى
 تَظُنُّهَا خِلَالَ وَهَجِ النُّورِ
 سَاقِيَّةً تَنْسَابُ فِي الزُّهُورِ
 تَصَوِّرُ الْمَصْدُورَ فِي خَدَّيْهِ
 تَوَرَّدُ يَطْفُو الصَّبَا عَلَيْهِ
 تَخَالُهُ الرَّبِيعَ عِنْدَ فَجْرِهِ
 إِنَّ أَنْتَ لَمْ تَسْمَعْ سَعَالَ صَدْرِهِ
 وَرَجُلًا غَصَّ بِبَلْعِ رَيْقِهِ
 فَاسْتَنْجَدَ الْقَطْرَةَ فِي إِبْرَيْقِهِ
 وَلَوْ دَرَى أَنَّ هُنَاكَ عَقْرَبٌ
 لَأَثَرَ الْغَصَّ عَلَى أَنْ يَشْرَبُ
 وَأَنْظُرُ أَحْيَرًا نَظْرَةً سَرِيعَهُ
 مُخْتَلَفَ الشَّرُّورِ فِي الطَّبِيعَةِ
 يَبْدُ لَكَ الْمَقْتُ إِذَنْ فَتَعْلَمُ
 كَيْفَ أَرَادَتْ «وَرْدَةً» جَهَنَّمَ

* * *

وَرَغِبَتْ غُلُوءًا أَنْ تَزُورَا
 أُمَّ الْجُدُودِ الْأَقْدَمِينَ صُورَا
 فَسَافَرْتُ يَخْفِرُهَا الْفَتَاءُ
 وَحُسْنُهُ — تَبَارَكْتَ غُلُوءًا

... ..

... ..

فَيْنِيقِيَا وَمَجْدُهَا الْمُشِيدُ
وَمَلْكُهَا الْمُعْظَمُ الْمُؤَيَّدُ
أَمِيرَةُ الْفُنُونِ وَالتَّجَارَةِ
وَمَنْشَأُ الْعُلُومِ وَالْحَضَارَةِ
سُلْطَانَةُ الْبَحَارِ وَالْأَسْفَارِ
مَلِيكَةُ الْبِرِّفِيرِ وَالنُّضَارِ
لُؤْلُؤَةُ الْعُرُوشِ وَالتَّيْجَانِ
وَمَطْمَحُ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ
أَمْسَتْ بَقَايَا وَطْنٍ مُدْمَرٍ
مَنْ بَعْدَ عِزٍّ شَامِخٍ مُنَوَّرٍ
قَائِمَةٌ كَالطَّلَلِ الْمَهْجُورِ
عَلَى مِيَاهِ شَاطِئِي فِي صُور!

٢

عَلَى ذُرْوَةِ بَيْنِ أَطْلَالِ صُورٍ
يُحِيطُ بِهَا شَجَرٌ وَصُخُورٌ
يَقُومُ بِنَاءٌ كَعُشِّ النُّسُورِ
بِنَاءٌ يَرَى الْعَابِرُونَ عَلَيْهِ
نَبَاتًا تَرَامَى عَلَى جَانِبَيْهِ
فَغَطَّى بِعَوْسَجِهِ سُدُقَتَيْهِ
كَرْمِيسٍ قَدِيمٍ لِمَيْنٍ وَزُورٍ
تَكَلَّلَ بِالشُّوكِ لَا بِالزُّهُورِ
طَلَاهُ الظَّلَامُ يَلُوكُنْ دُجَاهُ
لِكَثْرَةِ مَا لَامَسَتْهُ خُطَاهُ

وَمَرَّ عَلَيْهِ الضِّيَا فَطَلَاهُ
 كَأَنِّي بِهِ بُرْجُ جِنٍّ وَحُورُ
 تَرَدَّدَ بَيْنَ ظَلَامٍ وَنُورٍ
 إِذَا النُّورُ لَوَّنَهُ فِي السَّحَرِ
 وَمَدَّ عَلَيْهِ ظِلَالُ الْحَوْرِ
 تَرَاءَى كَطَيْفٍ خِلَالَ الشَّجَرِ
 أَتَى مِنْ دِيَامِيَسِهِ لِيَزُورَ
 بَقَايَا ذَرَارِيَّ تِلْكَ الْبُدُورِ
 وَحِينَ يَسِيلُ أَصْفَرَارُ الْمَغِيبِ
 عَلَى جَانِبَيْهِ بِشَكْلِ كَيْبِ
 يَبِينُ كَهَيْكَلِ عَظْمٍ مُرِيبِ
 أَبِي أَنْ تُوسِّدَهُ فِي الْقُبُورِ
 غَدَاةَ تَمَرَّدَ، أَيْدِي الدُّهُورِ،
 بِنَاءً تُزَنَّرُ أَسْوَارُهُ
 خَرَائِبُ تَعْرِفُ أَسْرَارُهُ
 فَقَدْ عَاشَتْ الدَّهْرَ سَمَارُهُ
 فَأَصْنَعْ لِنِسَالٍ عَنْهُ الصُّخُورُ
 أَلِلْحَبِّ شَيْدٌ أَمْ لِلشُّرُورِ
 أَيَا سَائِلِ الصَّخْرِ عَنْ جَارِهِ
 دَعِ الصَّخَرَ يَنْطِقُ بِأَخْبَارِهِ
 فَلَيْسَ ضَمِينًا بِأَسْرَارِهِ
 بَنَاهُ الْجَلَالُ وَشَيْدَ مَجْدَهُ
 وَقَدْ كَانَ عَهْدُ الْجَبَابِرِ عَهْدَهُ
 وَكَانَ الزَّمَانُ الْمُسَوَّدُ عَبْدَهُ
 تُنَارُ اللَّيَالِي بِأَنْوَارِهِ
 وَتُزْهِى بِأَعْيَادِ سَمَارِهِ

* * *

بَنَتْهُ يَدُ الْفَاتِحِينَ الْأَلَى
 أَهَابُوا بِفَيْنِيْقِيَا لِلْعُلَى
 فَأَمْسَى بِهِمْ شَعْبُهَا الْأَوَّلَا
 يَقُودُ الزَّمَانَ بِأَبْصَارِهِ
 وَيُسْجِدُهُ تَحْتَ أَسْوَارِهِ
 وَكَانَتْ أَمِيرَتُهُ يَوْمَ كَانَ
 أَمِيرَ الْقُصُورِ بِذَاكَ الزَّمَانَ
 كَحُورِيَّةٍ مِنْ عَذَارَى الْجَنَانِ
 مُعْطَرَةً مِثْلَ أَشْجَارِهِ
 بِدُھْنِ اللَّبَانِ وَأَسْحَارِهِ
 وَهَبَتْ عَلَى الْقَصْرِ رِيحُ سَمُومٍ
 ذَرَتْ مِنْهُ أَنْوَارَ تِلْكَ النُّجُومِ
 كَمَا ذَرَتْ النَّارُ شَعْبَ سَدُومِ
 وَلَمْ يَبْقَ مِنْ مَجْدِ آثَارِهِ
 سِوَى غُرَفَاتٍ لِيَتَذَكَّرَهُ
 تَرَى الْيَوْمَ يَخْلُفُ أَرْبَابَهَا
 وَيَقْتَحِمُ النَّتْنُ أَبْوَابَهَا
 وَيَفْتَرِشُ السُّوسُ أَخْشَابَهَا
 كَشَعْبٍ تَخْلَى لِأَشْرَارِهِ
 فِقَامَ الدَّمَارِ لِإِنْذَارِهِ
 لَقَدْ سَلَّطْتَ فُؤَهَاتُ الْجَحِيمِ
 عَلَى صُورَ نَارًا وَسُخْطًا عَظِيمِ
 كَنَارِ يَهُودَا وَأُورُشَلِيمِ
 وَأَبْقَى الزَّمَانُ بِأَسْفَارِهِ
 مِنَ الْمَجْدِ ذِكْرِي لِزُؤَارِهِ
 تَأَمَّلْ، تَأَمَّلْ بِرُوحِكَ زُهْدَهُ
 وَكَيْفَ تُبِيدُ صُرُوفَ اللَّيَالِي

أَمِيرَ الْقُصُورِ وَتَتْرُكُ بَعْدَهُ
بَقَايَا مِنَ الْغُرَفَاتِ خَوَالِي
خَوَالِي ... لَوْلَا «الْحَبِيبَةُ وَرَدَهُ»!

٣

فِي لَيْلَةٍ تَنَبَّهَتْ غَلَوَاءُ
وَالْبَدْرُ فِي مَخْدَعِهَا إِنَاءُ
تَسِيلُ مِنْهُ فِضَّةٌ بَيَضَاءُ
فَأَرْهَقَتْ مِسْمَعَهَا الْمَطْرُوقَا
فَسَمِعَتْ تَنَهُدًا عَمِيقَا
يَصْدُرُ عَمَّا يَنْهَشُ الْعُرُوقَا
وَأَرْسَلَتْ نَظْرَةَ بَرٍّ طَاهِرٍ
فَهَالَهَا فِي الْمَخْدَعِ الْمُجَاوِرِ
فَاجِرَةٌ عَلَى ذِرَاعٍ فَاجِرٍ!

... ..

... ..

... ..

مَا أَنْتِ يَا وَرْدَةُ تِلْكَ الْوَرْدَةُ
بَلْ أَنْتِ مِنْ أَشْوَكَهَا مُسَوَّدَةٌ
أَمِيرَةَ الشَّهْوَةِ أَنْتِ عَبْدَةٌ!

... ..

... ..

... ..

أَيُّ خَيَالٍ حَلَّ فِي غَلَوَاءَ
أَيُّ رُؤَى مُحْرِقَةٍ سَوْدَاءَ

تَعَلَّقْتُ أَجْفَانَهَا الْعَذْرَاءُ؟
فَهَرَبْتُ إِلَى ضِفَافِ الْبَحْرِ
وَطَوَّفْتُ بَيْنَ بَقَايَا الدَّهْرِ
مِنْ خُرْبَةِ لِرْجَمَةِ لِقَبْرِ
وَكَانَتْ الْمِيَاهُ وَالصُّخُورُ
قَائِمَةً مَا بَيْنَهَا الْقُبُورُ
حَتَّى السُّكُونُ حَوْلَهَا مَسْحُورُ
وَالْمَوْجُ بَعْدَ الْمَوْجِ كَيْفَ ذَابَا
مُسْتَسْلِمًا عَلَى الْحَصَى مُنْسَابَا
يُقَبِّلُ الْقُبُورَ وَالتُّرَابَا
كَأَنَّهُ جَمْعٌ مِنَ الْعَذَارَى
أَوْ ذِكْرِيَّاتٍ عَاشِقٍ تَوَارَى
تَهْمِسُ فِي أُذُنِ الرَّدَى أَسْرَارَا
وَالْمِيَاهُ زَبَدٌ كَثِيفُ
يُنْسَجُ مِنْهُ كَفَنٌ خَفِيفُ
عَلَيْهِ مِنْ نُورِ الدُّجَى حُرُوفُ
وَسَمِعْتُ غَلَوَاءَ طَيْرِ الْبُومِ
يَنْعَقُ كَالشُّؤْمِ عَلَى الرُّسُومِ
مُدْنَسًا نَقَاوَةَ النَّسِيمِ
وَأَسْتَيْقِظْتُ فِي نَفْسِهَا الْمَحْمُومَةِ
مِنْ «وَرْدَةِ الْحَبِيبَةِ» الْإِثِيمَةِ
صَارِخَةً، أَخِيلَةُ الْجَرِيمَةِ
وَدَبَّ فِي أَعْضَائِهَا النَّحِيفُ
قَفَقْفَةً وَرَجْفَةً عَنِيفُ
حُمَى سَرَتْ فِي جِسْمِهَا خَفِيفُ
وَأَسْتَفْحَلْتُ كَالشَّرِّ جَيْنَ يَبْدَأُ
فَهُوَ صَغِيرٌ إِنَّمَا لَا يَفْتَأُ

حَتَّى يَصِيرَ نَقْمَةً لَا تَبْرَأُ

... ..

... ..

... ..

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي

سَوْدَاءَ بِالْفِتْنَةِ وَالْجَمَالِ

فَأَصْبَحَتْ غُلُوءًا كَالْخَيَالِ

* * *

وَبَرَزَتْ عِظَامُهَا فِي الْجِسْمِ

مُصْطَفًى عَظْمًا إِزَاءَ عَظْمٍ

كَأَنَّهَا أَقْلَامُ الْأَعْتِلَالِ

تَكْتُبُ فِي صَحِيفَةِ الْأَجَالِ

وَسَالَ فِي وَجْنَتِهَا الذُّبُولُ

كَنَجْمَةٍ هَمَّ بِهَا الْأَفُولُ

وَامْتَقَعَ الْجَبِينُ بِاصْفِرَارِ

كَأَنَّهُ أَوَاخِرُ النَّهَارِ

فِي لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الْغُسُوقِ

تَذَكَّرَتْ حَيَاتَهَا فِي «الزُّوقِ»

وَذَكَّرَتْ مَوَاكِبَ الضَّبابِ

تَمْتَدُّ كَالْحُلُمِ عَلَى الْهَضَابِ

وَالشَّجَرِ الْأَخْضَرَ وَالسَّنَابِلِ

تَبْسُطُ لِلطَّبِيعَةِ الْأَنَامِلِ

وَذَكَّرَتْ أُخْيَلَةَ الْمَسَاءِ

وَرَنَةَ الْأَجْرَاسِ فِي الْهَوَاءِ

وَدَوْحَةَ الْكَنِيسَةِ الْحَقِيرَةِ

وَبَابَهَا الصَّغِيرَ وَالْفَقِيرَةَ

وَصُفْرَةَ الشَّمْسِ عَلَى الْجِبَالِ

وَلَعِبَ الْأَطْفَالُ فِي الظُّلَالِ
وَاحْتَشَدَتْ أَخْيَلُهُ التُّذْكَارِ
تَطُوفُ أَسْرَابًا عَلَى الْجِدَارِ
وَجَحَظَتْ فِي صَدْرِهَا الْأَلَامُ
كَجَفْنِهَا الْمَحْمُومِ لَا تَنَامُ
وَحَبَكَتْ فِي مُقْلَتَيْهَا الْحُمَى
بِقُلُوبِهَا الْعَفِيفِ ذَاكَ الْإِثْمَا
وَانْتَقَلَ الْإِثْمُ بِهَا انْتِقَالَه
أَجَرَتْ عَلَى خَيَالِهَا خَيَالَه
فَعَظَمَ الْوَهْمُ، وَفِي الْأَوْهَامِ
أَفْتَكُ بِالْعَقْلِ مِنْ السَّرْسَامِ
وَقَامَ فِي أَحْلَامِهَا الْمُعَذِّبَه
رُؤْيَا كَأَنَّمَا هِيَ الْمُرْتَكِبَه

الرُّؤْيَا

عَيْنُ مَنْ هَذِهِ اللَّيْلِ لَا تَنَامُ؟
هِيَ عَيْنُ ضِيَائِهَا الْآثَامُ!
... ..
... ..
أَلَمْتَهُ ذِكْرِي، فَتَاهَ وَفِي عَيْنَيْهِ
مِنْ أَمْسِهِ الْأَثِيمِ حُطَامُ
وَعَلَى الشَّاطِئِ الْكَثِيبِ قَتَامُ
وَعَلَى صُورَ وَخَشَّةٍ وَقَتَامُ
حَاوَلَ النَّوْمَ غَيْرَ أَنَّ طُيُوفَا
جَاوَرَتْ عَيْنَهُ وَفِيهَا انْتِقَامُ

فَنَبَا عَنْ فِرَاشِهِ كَأَثِيمٍ
أَيَقْظَتْهُ مِنْ نَوْمِهِ الْأَحْلَامُ
إِنَّ عَيْنَ الْأَثِيمِ جُرْحٌ عَمِيقُ
قَذِرُ الْجَانِبَيْنِ، لَا يَلْتَامُ

... ..

... ..

وَتَرَاءَتْ لَهُ مَجَارِي الْوَادِي
كَسَرِيرٍ يَغِيْمُ فِي الْأَبْعَادِ
فَبَكَى ذَاكِرًا عُذُوبَةَ مَاضِيهِ
وَحُبًّا مَضَى مَعَ الْأَوْرَادِ
قَالَ: «مَا حَلَّ بِاللَّيَالِي الْخَوَالِي
كَيْفَ عَاشَتْ بِهَا يَدُ الْجَلَادِ؟»
وَتَلَوَى يَصِيحُ: «وَيْحَ ضَمِيرِي
لَيْسَ هَذَا الْجَلَادُ إِلَّا فُؤَادِي!»
طَرَحَتْكَ السَّمَاءُ عَنْ قَلْبِ غَلَوَاءَ
كَفَرَعِ رَجَسٍ مِنَ الْأَجْسَادِ
خَائِنَ الْحُبِّ إِنَّ حُبَّكَ دُونُ
فَاحْتَجَبَ فِيهِ عَنْ عُيُونِ الْعِبَادِ
ثُمَّ سَادَتْ سَكِينَةٌ وَتَوَارَتْ
جُزُرُ النُّورِ فِي الْفَضَاءِ الرَّمَادِي
لَمْ يَرَ الْفَجْرَ غَاسِلًا بِضِيَاهُ
هَضْبَاتِ الْمَدِينَةِ الْمَرْدُومَةِ
وَقِبَابِ الْأَبْرَاجِ يُوقِظُهَا النُّورُ
كَجَنٍّ عَلَى قُبُورٍ قَدِيمَةٍ
فَرَّ لَمْ يَلْتَفِتْ كَشَعْبٍ سَدُومِ
حِينَمَا أَحْرَقَ إِلَهُهُ سَدُومَهُ

... ..

... ..
مُزَجَّ النُّورِ بِالدُّجَى حِينَ حَطَّ الْفَجْرُ
فِي صَفْحَةِ السَّمَاءِ رُسُومَهُ
كَضَمِيرِ الْأَثِيمِ يَشْمَلُهُ الصَّفْحُ
وَتَبَقَى مِنْ وَخْزِهِ جُرْثُومُهُ
فَأَاطَلَتْ غُلُوءٌ مِنْ كُوءِ الْخَدْرِ
وَفِي نَفْسِهَا شُجُونٌ عَظِيمُهُ
قَالَتْ: «الْفَجْرُ شَاخِبٌ مِثْلُ وَجْهِي
وَأَلِيمٌ سَاهٍ كَنَفْسِي الْأَلِيمُهُ
أَيُّهَا الْعُمْرُ، كَمْ تَعُدُّ صَبَاحًا
بَعْدُ لِي ... فِي أَيَّامِكَ الْمَحْطُومَةِ؟»

العهد الثاني

عذاب الضمير

١

تَرَامِي اللَّيْلُ كَالْهَمِّ الثَّقِيلِ
يَجْرُ ذُيُولَ مِعْطَفِهِ الطَّوِيلِ
وَيُبْرِزُ فِي مَشَارِفِهِ نُجُومًا
بِلَوْنٍ بَرْتَقَالِيٍّ ضَائِلِ
وَكَاثَتْ زُوقُ مِيكَائِيلَ تُصْغِي
إِلَى هَمَسِ النَّيَّاسِمِ فِي الْحُقُولِ
فَتَبْسُمُ عَنْ كَوَاكِبِهَا النَّحِيلَةَ
وَتَحْلُمُ فِي جَوَاذِبِهَا الْجَمِيلَةَ
بِعَهْدٍ — مَرٍّ فِي الدُّنْيَا — جَمِيلِ
وَكَاثَتْ قُبَّةُ الْجَرَسِ الْمُقِيمَةِ
عَلَى عَمْدِي كَنِيسَتِهَا الْقَدِيمَةِ
تَقَطُّعُ فِي السَّمَاءِ وَقَدْ تَرَامِي
عَلَيْهَا النُّورُ أَفْلَازًا سَقِيمَةَ
كَطَيْفٍ يَخْفِرُ الْأَمْوَاتَ لَيْلًا
وَيَبْقَى سَاهِرًا سَهَرَ الْأُمُومَةِ

وَكَانَ اللَّيْلُ مُنْفَطِرَ الشُّعُورِ
أَحْسَ لَهَيْبَ سُكَّانِ الْقُبُورِ
فَلَطَّفَ فِي مَعَابِرِهِ نَسِيمَهُ
وَكَانَتْ أَغْصُنُ الدُّوْحِ الْقَدِيمِ
يَهْزُ رُءُوسَهَا مَرُّ النَّسِيمِ
فَيَسْمَعُ فِي الدُّجَى مِنْهَا حَفِيفُ
كَصُوتِ الْوَحْزِ فِي قَلْبِ أَثِيمِ
وَفِي الْأَكْوَاحِ أَقْبَاسُ ضِعَافِ
كَأَخِيلَةِ الْكَوَكِبِ فِي الْأَدِيمِ
تُصْعَدُ مِنْ نَوَافِذِهَا الصَّغِيرَةِ
زَفِيرًا مِنْ أَشْعَتِهَا الْحَقِيرَةِ
كَأَنَّ بَرَزِيَّتَهَا بَعْضَ الْهُمُومِ
وَفِي الْأَبْعَادِ كَانَ يُرَى الْخَلِيجُ
تَمُجُّ مِيَاهُهُ نُورًا يَمُوجُ
كَلُوحِ أَسْوَدٍ مُلْقَى عَلَيْهِ
إِطَارٌ فِيهِ مِنْ ذَهَبٍ نَسِيجُ
تُدَبِّجُهُ مَصَابِيحُ وَزْهَرُ
لَهَا فِي الْمَاءِ مَنْظَرُهَا الْبَهِيحُ
وَأَضْوَاءُ النُّجُومِ عَلَى الشَّوَاطِئِ
إِذَا امْتَزَجَتْ بِأَضْوَاءِ الْمَرَاثِئِ
يَكُونُ مِنْ الْخَيَالِ بِهَا مَزِيحُ
دَعِ الْأَبْعَادَ فِي اللَّيْلِ الْجَمِيلِ
تَنَمُّ سَكْرَى مَعَ النُّورِ الضَّئِيلِ
وَحَلُّ أَنْامِلِ النَّسَمَاتِ تَلْعَبُ
كَمَا شَاءَتْ بِأَوْرَاقِ الْحُقُولِ
وَدَعُ قَطَرَ النَّدى الْمَخْمُورِ يَسْقُطُ
عَلَى جَسَدِ الْجَنَائِنِ وَالطُّلُولِ

وَهَيَّا بِي نَلِجْ قَصْرًا صَغِيرًا
تَرَى الْمِصْبَاحَ يَمْلُؤُهُ شُعُورًا
رَسَا فِي الزُّوقِ مِنْ عَهْدِ طَوِيلِ
فَتُبْصِرْ إِنْ وَلَجْتَ فَتَى كَثِيبًا
مَنْ الْإِحْسَاسِ يُوشِكُ أَنْ يَذُوبَا
إِذَا أَمَعَنْتَ فِيهِ رَأَيْتَ جِسْمًا
يَقُورُ كَأَنَّ فِي دَمِهِ لَهَيْبَا
لَهُ قَلْبٌ يُرَى فِي كُلِّ قَلْبٍ
كَأَنَّ اللَّهَ ذَرَّ بِهِ قُلُوبَا
فَتَى كَالْفَجْرِ أَلَوْنَا وَعُمُرَا
إِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَ فَجْرَا
يَمُدُّ جَمَالَهُ ظِلًّا غَرِيبَا
وَإِنْ أَصْغَيْتَ تَسْمَعُهُ يَقُولُ
لِوَالِدَةِ أَلَمْ بِهَا النُّحُولُ
لَأَمْ فَارَقْتَ زَوْجًا حَبِيبَا
طَوَاهُ مِنَ الرَّدَى لَيْلٌ ثَقِيلُ:
«أَحْسُ لَهَا اضْطِرَابًا فِي فُؤَادِي
وَدَمْعًا فِي حَنَائِيهِ يَجُولُ
وَمَا أَحْسَسْتُ أَمْسٍ بِمِثْلِ هَذَا
فَأَمْسِي كَانَ، لَا أَدْرِي لِمَاذَا،
جَمِيلًا، كُلُّ مَا فِيهِ جَمِيلُ!
أَجَلْ، يَا أُمُّ، صِرْتُ فَتَى شَقِيًّا
يَكَادُ الْيَأْسُ يُطْفِئُ مُقْلَتَيَا
فَأَيْنَ مَضَتْ لَيَالِي الْخَوَالِي
وَقَلْبُ كَانَ فِي الْمَاضِي خَلِيًّا؟
أَرَى غُلُوءًا تُعْرِضُ عَنْ هِيَامِي
وَيَكْتُمُ قَلْبُهَا سِرًّا خَفِيًّا!»

وَتَسْمَعُهَا تَقُولُ لَهُ: «شَفِيقُ
 بُنَيَّ، لَقَدْ أَضَلَّتْكَ الطَّرِيقُ
 فَهَلْ نَبَّهْتُ قَلْبَكَ يَا بُنَيَّا؟
 جَمِيلٌ، يَا وَحِيدِي، أَنْ تُجَبَّا
 وَتَرْفَعَ لِلْهَوَى عَيْنًا وَقَلْبًا
 وَتَسْمَعَ مِنْهُ أَنْغَامًا عَذَابًا
 وَتَشْرَبَ مِنْ يَدَيْهِ الْمَاءَ عَذْبًا
 لَقَدْ أَحْسَسْتُ قَبْلَكَ بِاضْطِرَابٍ
 وَقَاسَيْتُ الْهَوَى سَهْلًا وَصَعْبًا
 وَلَكِنْ لَيْسَ يَنْدُمُ مَنْ تَأَنَّى
 فَعَلُوا، يَا ابْنِ، أَكْبَرُ مِنْكَ سِنًا
 إِذَا رَضِيَ الْهَوَى فَالْعُمُرُ يَأْبَى
 تَأَنَّ فَسَوْفَ تَهْوَى مَنْ تُرِيدُ
 وَتَهْوَاكَ الْعَذَارَى وَالْوُرُودُ
 فَمِثْلُكَ لَا يُجَاوِرُهُ قُنُوطُ
 وَمِلءُ شَبَابِهِ عَقْلُ رَشِيدُ
 أَمَامَكَ، يَا ابْنِ، أَعْوَامُ طَوَالُ
 وَمِنْ زَهْرِ الْهَوَى عَدَدُ عَدِيدُ
 تَأَنَّ فَسَوْفَ تَقْطُفُ مِنْهُ زَهْرَهُ
 تَكُونُ أَشَدَّ مِنْ غُلُوءِ نَضْرَهُ
 يُبَارِكُ عِطْرَهَا الْعَهْدُ الْجَدِيدُ»
 فَيُطْلِقُ زَفْرَةَ التَّعَسِ الْكَثِيبِ
 وَيَغْرَقُ فِي دُجَى فِكْرِ غَرِيبِ
 وَيَذْهَبُ لَا يُجِيبُ ... وَفِي هَوَاهُ
 لَظَى شَكٌّ أَشَدُّ مِنَ اللَّهِيْبِ
 وَكَيْفَ يُجِيبُ أُمًّا جَفَّ فِيهَا
 عَصَارُ الْحُبِّ فِي عَهْدِ الْغُرُوبِ

أَيَا أُمِّي، اصْرِفِي ذِي الْكَاسِ عَنِّي
فَمَا فِي الْحُبِّ شَأْنٌ لِلتَّائِي
وَمَا لِلْعُمْرِ شَأْنٌ فِي الْقُلُوبِ
وَيَذْهَبُ لَا يُجِيبُ ... وَفِي هَوَاهُ
مِنَ الْأَشْجَانِ مَا يُضْنِي قَوَاهُ
دَعِي، يَا أُمَّ، زَهَرَ النَّاسُ يَبْسُمُ
وَيَنْشَقُّ فِي الْوَرَى غَيْرِي شَدَاهُ
فَلِي فِي جَنَّةِ الْأَشْوَاكِ زَهْرُ
غَرِيبِ اللَّوْنِ لَا أَرْضَى سِوَاهُ!

... ..
... ..
... ..

٢

وَشَفِيتْ غُلُوءًا مِنْ آلَمِهَا
لَكِنَّهَا لَمْ تَشْفَ مِنْ أَوْهَامِهَا!

... ..
... ..
... ..
... ..

صُبَابَةُ اللَّيْلِ عَلَى الْهَضَابِ
تَرْحَفُ رَحْفَ الْهَارِبِ الْمُرْتَابِ
سَاحِبَةً وَشَاحَهَا الرَّمَادِي
عَنْ جَسَدِ الْأَعْمَشَابِ وَالْأَوْرَادِ
وَبَرَزَتْ جَوَاذِبُ السُّهُولِ

عَارِيَّةً، بِلَخْظِهَا الْخَجُولِ
وَأَنْتَعَشَتْ حُشَاشَةُ النَّسِيمِ
فَارْتَعَشَتْ فِي وَرَقِ الْكُرُومِ
وَدَوَّيْتُ أَبْخِرَةَ الْأَنْوَارِ
فِي الصُّبْحِ أَلْوَانًا عَلَى الْأَطْيَارِ
بَرَاعِمُ الزَّهْرِ عَلَى الْأَكَامِ
تَبَسُّمُ الرَّبِيعِ لِللَّيَامِ
وَنَعْمُ الْجَدَاوِلِ الرَّقْرَاقِ
تَمْتَمَةُ الطَّبِيعَةِ الْمُشْتَاقِ
مَنْ يَا تَرَى يَكُونُ هَذَا الْوَلَدُ؟
فِي مُقْلَتَيْهِ حُلْمٌ مُشَرَّدُ
كَأَنَّهُ فِي جِسْمِهِ الضَّعِيفِ
وُرَيْقَةٌ مِنْ وَرَقِ الْخَرِيفِ
لَا حُبُّهُ يَحْلُو وَلَا الرَّبِيعُ
فَقَلْبُهُ وَعَيْنُهُ دُمُوعُ!

٣

أَطَلْتُ مِنَ الشُّبَّانِ وَاللَّيْلِ نَيْرُ
فَأَبْصَرْتُ الْأَوْرَاقَ تُطْوَى وَتُنْشَرُ
يَغِيبُ ضِيَاءُ الْبَدْرِ عَنْهَا فَتَخْتَفِي
وَيُظْهِرُ مِنْ بَيْنِ السَّحَابِ فَتُظْهِرُ
فَقَالَتْ: «أَفِي الْبُسْتَانِ رِيحٌ لَطِيفَةٌ
تُبْرِدُ فِي نَفْسِي لَظَى يَتَسَعَّرُ
أَفِيهِ خَيَالَاتٌ أَحْنُ مِنَ الْوَرَى
تُبَدِّدُ عَنِّي بَعْضَ مَا أَتَذَكَّرُ!»

وَحَفَّتْ إِلَيْهِ، وَارْتَعَاشَتْ جِسْمَهَا
يُلَوْنُهَا الْبَدْرُ الْحَيُّ الْمَصُورُ
فَصَادَفَ جَفْنَاهَا الْكَسِيرَانِ جَدُولًا
تَخَلَّلَ مَجْرَاهُ سُرَادِقُ أَخْضَرُ
وَقَدْ طَفَتِ الْأَزْهَارُ فَوْقَ مِيَاهِهِ
كَحُلْمٍ نَقِيٍّ اللَّوْنِ يَأْتِي وَيَعْبُرُ
وَفِي حِينٍ كَانَتْ تُرْسِلُ الْفِكْرَ فِي الدُّجَى
وَفِي نَفْسِهَا مَاضٍ يَمُدُّ وَيَجْزُرُ
تَرَاءَتْ لِعَيْنَيْهَا طُيُوفٌ مُخِيفَةٌ
تَمُجُّ كَأَفْوَاهِ الْأَقَاعِي وَتَصْفِرُ!
وَعَادَتْ لِمَأْوَاهَا لَدُنْ عَادَ رُشْدُهَا
إِلَيْهَا، وَفِي الْأَجْفَانِ يَأْسٌ وَأَذْمُعُ
وَأَلْقَتْ بِأَيْدِي النَّوْمِ مَخْمُورَ رَأْسِهَا
فَجَاوَرَ عَيْنَيْهَا كَرَى مُتَقَطِّعُ
تَمُرُّ بِهِ الْأَحْلَامُ خَاوِيَةَ الْحَشَا
جِيَاعٌ تُزَجِّيْهَا طَوَائِفُ جُوعُ
جِيَاعٌ يُؤَدِّيْهَا الْخَوَاءُ إِلَى الْكَرَى
فَتَأْكُلُ أَفْلَادَ الْعُيُونِ وَتَشْبَعُ
رُمُوزَ هَوَى يَسْتَرْفِدُ الْقَلْبَ بُلْغَةً
إِذَا جَاعَ، أَوْ يُهْوِي عَلَيْهِ فَيَبْضَعُ
وَلَمَّا طَوَى اللَّيْلُ النَّجِيَّ وَشَاحَهُ
وَجَاءَ سَفِيرُ الصَّبَاحِ يُشَيِّعُ
أَفَاقَتْ، وَقَدْ لَاشَى لَهَيْبَ شُجُونِهَا
سَمَاعُ طُيُورٍ فِي الْحَدِيقَةِ تَسْجَعُ،
كَمِجْمَرَةٍ أَفْنَتْ مَدَى اللَّيْلِ نَارَهَا
فَمَا حَشُوْهَا إِلَّا رَمَادٌ مُجَمَّعُ
وَرَنَّ صَدَى الْأَجْرَاسِ فِي كَبِدِ الضُّحَى

يُهَيِّبُ بِأَرْوَاحِ التُّقَاةِ فَتُسْرِعُ
فَقَالَتْ: «لَعَلَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَتِي
فَمَا لِي فِي الدُّنْيَا سِوَى اللَّهِ مَرْجِعُ»

٤

النَّاسُ فِي الْمُعْتَكِفِ الْمُقَدَّسِ
يُغْلَوْنَ لِلَّهِ بِخُورِ الْأَنْفُسِ
وَلِلنُّفُوسِ صَوْتَهَا الْمَسْمُوعُ
وَأَذْرُعُ الْعَجَائِزِ الْمُرتَجِفَةُ
كَأَنَّهَا مَسَارِجُ مُنْعَكِفَةٍ
جَفَّتْ عَلَى قِمَمِهَا الشُّمُوعُ

* * *

وَصَلَوَاتُ الْكَاهِنِ الْقَدِيسِ
تَذِيبُ رُوحَ اللَّهِ فِي النُّفُوسِ
قَالَ بِصَوْتٍ خَافَتْ: «أَبَانَا
أَنْزِلْ عَلَى شُعُوبِكَ الْغُفْرَانَا!»
إِذَا بَغَلُوا كَضَمِيرِ الْجَانِي
تَجْمُدُ عِنْدَ لَفْظَةِ الْغُفْرَانِ
وَتَخْفِضُ الرَّأْسَ إِلَى الْحَضِيضِ
ذَارِفَةً مِنْ جَفْنِهَا الْمَرِيضِ
بَعْضُ دُمُوعِ كَالْعَفَافِ بِيضِ
وَالْعَرَقُ الْبَارِدُ مِنْ جَبْهَتِهَا
يَرشُحُ كَاللَّهَبِ مِنْ مُهَجَّتِهَا
أَوْ كَمَذَابِ الْقَلْبِ مِنْ تَوْبَتِهَا
وَكَانَ فِي إِحْدَى زَوَايَا الْهَيْكَلِ

مُخْتَطَفَ الرُّوحِ شَرِيدَ الْمُقَلِّ
ذُو النَّظَرِ الْمُخَدَّرِ الْمُشْتَعِلِ

* * *

فَبَدَرْتُ مِنْ عَيْنِهِ التِّفَاتَهُ
إِلَى الْمُصَلَّى فَرَأَى فَتَاتَهُ
غُلُوءَ ذَاتِ الْأَكْمِ السَّرِيِّ
ذَاتِ الضَّمِيرِ التَّعَبِ الشَّقِيِّ
ذَاتِ الْهَوَى الْمُدْنِسِ النَّقِيِّ
تَقْرَأُ فِي كِتَابِهَا الصَّغِيرِ
كَأَنَّهَا تَقْرَأُ فِي ضَمِيرِ
مُعَذِّبٍ مُلْتَهَبِ السُّطُورِ
وَتَارَةً تَرْفَعُ عَيْنًا سَاهِيَهُ
إِلَى الْبُخُورِ الْمُتَلَاشِيِ
فِي سَمَاءِ الزَّائِيَةِ
فَتَتَلَاشَى مِثْلَهُ أَنْفَاسُهَا
فِي خَلَجَاتٍ وَارْتِعَاشِ
مِثْلِ ارْتِعَاشَاتِ الْفَرَاشِ
فِي الْجَوْجَيْنِ تَنْتَهِي أَعْرَاسُهَا
أَوْ كَالضُّبَابِ فِي مَسَا الْخَرِيفِ
يَنْحَلُّ فِي ارْتِعَاشِهِ الْخَفِيفِ
فَقَالَ: «مَا تَخْشَى تَرَاهَا، مَا بِهَا
يَعْمُرُهَا طَوْرًا دَجَى اضْطِرَابِهَا،
وَتَارَةً تُعْرِضُ عَنْ كِتَابِهَا؟»
وَأَنْتَهَتْ الصَّلَاةُ
فِي هَيْكَلِ الْإِلَهِ
فَانْصَرَفَ الْجُمْهُورُ
وَبَقِيَتْ غُلُوءًا

وَالْهَمُّ وَالشَّقَاءُ
فِي الْمَعْبِدِ الْمَهْجُورِ
كَشَمْعَةٍ لَمَّا تَزَلْ مُضَوَّاهُ
بَيْنَ شُمُوعِ الْهَيْكَلِ الْمُنْطَفِئَةِ

٥

كَانَ شَفِيقٌ لَمْ يَزَلْ مُخْتَلِي
فِي الْجِهَةِ الْيُسْرَى مِنَ الْهَيْكَلِ
مُفَكِّراً فِي حُبِّهِ الْمُقْفَلِ
يُسَائِلُ الْقَلْبَ فَلَا يَنْطِقُ
وَالْقَلْبُ سِرٌّ فِي الْهَوَى يَخْفِقُ
فَمُذْ رَأَى فُلَّتَهُ الذَّاوِيَةَ
غَلَوَاءَ ذَاتِ الْكَبِدِ الدَّامِيَةِ
بَاقِيَةً تَضْرَعُ فِي الزَّاوِيَةِ
قَالَ: «أَفَقُ يَا حُبُّ مِنْ هَجَعَتِكَ
فَسَيِّدُ الْأَلَامِ فِي بَيْعَتِكَ
أَحَبُّ حَتَّى مَرِيمَ الزَّانِيَةِ!»
ثُمَّ دَنَا مِنْهَا وَفِي مُقْلَتِهِ
دَمْعٌ يَطُوفُ الْحُبُّ فِي مَوْجَتِهِ
كَحِطْمَةٍ تُقْدَفُ مِنْ مُهَجَّتِهِ
فَانْتَفَضَتْ غَلَوَاءَ مِنْ دُعْرِهَا
وَنَارَتِ الْأَنْفَاسُ فِي صَدْرِهَا
كَأَنَّهَا الْبُرْكَانُ فِي ثَوْرَتِهِ
فَقَالَ: «عَفْوًا، هَذِهِ أَدْمُعِي
تَشْفَعُ، يَا غَلَوَاءُ، بِي فَاشْفَعِي

قَطَرْتُهَا مِنْ قَلْبِي الْمَوْجِعِ
تَحْمِلُ فِي مَوْجَاتِهَا مِنْ دَمِي
حَدِيثُ حُبٍّ لَمْ يَرِدْ مِنْ فَمٍ
وَلَمْ يَقَعْ مِنْ قَبْلُ فِي مَسْمَعٍ
أَمَامَ هَذَا الْهَيْكَلِ الْأَطْهَرِ
أَمَامَ عَيْنِ الْبَائِسِ الْأَكْبَرِ
أَمَامَ شَمْعِ الْمَعْبِدِ الْأَصْفَرِ
وَهَذِهِ الْأَشْعَّةُ الدَّائِبَةُ
مِنْ فِلَذَةِ الْغَزَالَةِ الشَّاحِبَةِ
عَلَى رُخَامِ الْمَذْبَحِ النَّيِّرِ
أَمَامَ أَوْجَاعِي، أَمَامَ الْأَلَمِ
أَمَامَ هَذَا الضَّعْفِ، هَذَا السَّقَمِ
وَهَذِهِ الْعَيْنِ الَّتِي لَمْ تَنْمِ
أَطْرَحُ قَلْبِي لِلْهَوَى مَجْمَرَةً!
فَغَمَغَمْتُ غُلُوءًا: «مَا أَكْفَرَهُ
هَذَا الْهَوَى! يَمْضِي وَيَأْتِي النَّدَمُ»
وَحَدَقْتُ حِينًا إِلَى الْمُغْرَمِ
وَقَلْبُهَا فِي صَدْرِهَا الْمُظْلِمِ
يَمْشِي مِنَ الْأَلَمِ فِي مَاتَمٍ
ثُمَّ أَمَالَتْ عَيْنُهَا السَّاهِيَةَ
عَنْ عَيْنِهِ الْكَئِيبَةِ الْبَاكِيةِ
وَاسْتَغْرَقَتْ فِي حُلْمٍ مُبْهِمٍ
فَقَالَ: «لَا، لَا تُعْرِضِي فَالْشَّقَا
أَرَادَ، يَا غُلُوءًا، أَنْ أُخْلَقَا
أَنْ أَعْرِفَ الْحُبَّ وَأَنْ أَعْشَقَا
فَأَيُّ سِرٍّ فِي دُجَاكِ اسْتَتَرُ
تُفْشِيهِ عَيْنَاكِ لِهَذِي الصُّورِ

وَعَنْ فَوَائِدِي لَمْ يَزَلْ مُغْلَقًا؟
وَلَمْ يَكْدُ يَصْمُتْ حَتَّى سَجَدَ
قُدُسُ الْهَوَى مَا ذَلَّ فِيهِ أَحَدُ
فَالْحُبِّ، لَا كُفْرَ، إِلَهَ صَمَدُ
كَأَنَّ فِي مُقْلَتِهَا هَيْكَلَهُ
يَرَى عَلَيْهِ سَيِّدَ الْجَلْجَلَةِ
يَفْتَحُ لِلْحُبِّ جِرَاحًا جَدُّ
وَقَالَ: «غَلَوَاءُ، هُنَا مَعْبِدِي
فِي صَدْرِكَ الْمُنْطَفِئِ الْمَوْقِدِ
وَعَيْنِكَ الْغَرْقَى بِبَحْرِ الْغَدِ»
وَصَادَفَتْ مُقْلَتُهُ الْمَذْبَحَا
عَلَيْهِ ذَيْلٌ مِنْ شُعَاعِ الضُّحَى
وَصُورَةُ الْعَذْرَا فَقَالَ: «اشْهَدِي!»
قَالَ: «اشْهَدِي، إِنَّ الْهَوَى يَشْهَدُ
يَا صُورَةَ لِمَرْيَمَ تُعْبَدُ
يَا مَوْقِدًا لِلْحُبِّ لَا يَخْمَدُ»

... ..

... ..

... ..

الْحُبُّ نِيرَانٌ تُنِيرُ السَّمَاءَ
فَتُرْسَلُ النُّورَ لَنَا كُلَّمَا
حَانَ مَعَ اللَّهِ لَنَا مَوْعِدُ
أَشْعَةً مِنْ مُقْلَةِ الْخَالِقِ
تَذُوبُ فِي الْأَكْبَادِ مِنْ حَالِقِ
فَتَمَزُجُ الْخَالِقَ بِالْعَاشِقِ
وَاللَّهُ مَا أَبْدَعَ قَلْبَ الْبَشَرِ
حَتَّى يَظَلَّ خَامِدًا كَالْحَجَرِ

فَالنَّارُ فِي عُنْصُرِهِ الْخَافِقِ
 قَالَ لَهَا: «قَلْبُكَ، مَا أَفْجَعَهُ!
 اللَّهُ مَا أَقْسَاهُ! مَا أَوْجَعَهُ!
 تَكَلَّمِي، أَوْدُ أَنْ أَسْمَعَهُ
 أَوْدُ أَنْ أَحْزِي لَهُ أَضْلُعِي
 قَوْسًا مِنْ الْحُبِّ فَيَبْقَى مَعِي
 مَا بَقِيَ الْعُمْرُ، وَأَبْقَى مَعَهُ
 أَوْدُ أَنْ أَفْرُشَ عَيْنَيَّ لَهُ
 هَذَا دَمِي أَوْدُ أَنْ يَأْكُلَهُ
 إِنَّ الْهَوَى يُهَوِّنُ الْجَلْجَلَةَ
 لَيْسَ الْهَوَى، يَا أُخْتِ رُوحِي، سِوَى
 قُرْبَانَةِ الْأَرْوَاحِ، لَيْسَ الْهَوَى ...»
 فَغَمَمَتْ غُلُوبًا: «سِوَى مَهْرَلَةٍ»
 وَغَادَرَتْهُ فِي أَسَى مُوْغِلٍ
 مِنْ مُشْكِلٍ يُزْجِي إِلَى مُشْكِلٍ
 كَمُذْلَجٍ فِي لَيْلِهِ الْأَلِيلِ
 فَقَالَ: «هَذَا الْحُبُّ مَنْ أَنْزَلَهُ؟»
 فَرَنَ فِي مِسْمَعِهِ: «الْمَهْرَلَةُ!»
 وَرَجَعَتْهَا قُبَّةُ الْهَيْكَلِ!

العهد الثالث

التجلى

١

أَجْرَحَ الْقَلْبَ وَأَسْقَى شِعْرَكَ مِنْهُ
فَدَمَّ الْقَلْبَ خَمْرَةَ الْأَقْلَامِ
مَصْدَرُ الصِّدْقِ فِي الشُّعُورِ هُوَ الْقَلْبُ
وَفِي الْقَلْبِ مَهْبِطُ الْإِلَهَامِ
وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تُعَذِّبْ وَتَغْمِسْ
قَلَمًا فِي قَرَارَةِ الْأَلَامِ
فَقَوَافِيكَ زُخْرُفٌ وَبَرِيقُ
كَعِظَامٍ فِي مَدْفَنٍ مِنْ رُخَامِ
وَإِذَا الْقَلْبُ لَمْ يُرَقِّقْ بِحُبِّ
حَجَّرَتْهُ ضَغَائِنُ الْأَيَّامِ
وَالْهَوَى دُونَ أَكْبَدٍ لَيْسَ يَحْيَا
فَغِذَاءُ الْهَوَى مِنَ الْأَجْسَامِ
ضَحَّ بِالْقَلْبِ إِنْ هَوَيْتَ فَلَيْسَ
الْقَلْبُ إِلَّا وَلِيْمَةٌ لِلْغَرَامِ
يَا لَهَا فِي الْهَوَى وَلِيْمَةٌ قَلْبٍ

سَوْفَ يَبْقَى لَهَا صَدَى فِي الْأَنَامِ
وَأَشَقَّ مَا شِئْتُ فَالْشَّقَا مُحْرِقَاتُ
صَعِدْتُ مِنْ مَذَابِجِ الْأَرْحَامِ
رُبَّ جُرْحٍ قَدْ صَارَ يُنْبِوَعُ شَعْرُ
تَلْتَقِي عِنْدَهُ النُّفُوسُ الظُّوَامِي
وَزَفِيرِ أَمْسَى، إِذَا قَدَّسَتْهُ الرُّوحُ،
ضَرْبًا مِنْ أَقْدَسِ الْأَنْعَامِ
وَعَذَابٍ قَدْ فَاحَ مِنْهُ بَخُورُ
خَالِدٍ فِي مَجَامِرِ الْأَحْلَامِ
... ..

قَطَفَ الْهَمُّ وَالْأَسَى زَهْرَاتِ
نَبَتَتْ فِي ضَفَافِ نَبْعِ الدُّمُوعِ
وَجَنَى الْبُؤْسُ بَعْضَ أَشْوَاكِ وَرَدِ
عَطَفَتْهَا الصَّبَا عَلَى الْيَنْبُوعِ
وَإِذَا بِالْغَرَامِ يَضْفِرُ مِنْهَا
لِشْفِيْقٍ إِكْلِيلَ قَلْبٍ وَجِيعِ
وَتَرَاءَتْ مَلَائِكُ لِشْفِيْقٍ
فِي ثَنَائَا غَمَامَةٍ بَيُضَاءِ
وَكَبَّتْهَا مِنَ السَّمَاءِ عَذَارَى
طَاهِرَاتُ كَأَنَّمَعَ الشُّعْرَاءِ
حَامِلَاتُ عَلَى الصُّدُورِ حُلِيًّا
كَمَصَابِيحٍ أَشْعَلَتْ فِي السَّمَاءِ
أَوْ عَنَاقِيدَ أَنْضَجَتْهَا شُمُوسُ الْحُبِّ
فِي عَالَمِ الْخَيَالِ الرَّفِيعِ
حَيْثُ لَا يَضْمَحَلُّ فَضْلُ الرَّبِيعِ
وَتَرَاءَتْ لَهُ سَلَالِمُ حَمْرَاءُ

تَدَلَّتْ أَذْيَالُهَا فِي الْأَثِيرِ
فُرِشَتْ كُلُّ سُلَّمٍ بِوُرُودٍ
رَبَطَتْهَا شَفَائِفُ مَنْ حَرِيرِ
وَعَلَى كُلِّ وَرْدَةٍ قَطْرَاتُ
شَعٍ مِنْهَا لَمْ أَدِرْ أَيَّ شُعُورِ
فَكَأَنَّ الْوُرُودَ جَامَاتُ حُبِّ
أَوْ قَوَارِيرُ رُصَعَتْ بِدُمُوعِ
وَطَلَّتْهَا السَّمَاءُ بِلَوْنِ النَّجِيعِ
وَتَرَاءَتْ لَهُ جُمُوعُ الْعَذَارَى
فَوْقَ تِلْكَ السَّلَالِمِ الْعُلُويَّةِ
عَارِضَاتٍ لَهُ مَرَامِيرَ دَاوُدَ
بِكِنَارَةِ الْهَوَى الْقُدْسِيَّةِ:
«كُلُّ لَيْلٍ، يَا رَبِّ، أَغْمُرُ بِالِدَّمْعِ
سَرِيرِي مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْخَطِيئَةِ
وَيُمِيعُ الْفِرَاشَ مَاءٌ عُيُونِي!»
كُنَّ يَغْزِفْنَ وَالصَّدَى فِي الرَّقِيعِ
كَانَ يَرْقَى إِلَى الْعَلَا بِخُشُوعِ
«فِي قُلُوبِ الْوَرَى فَسَادٌ وَلَا صِدْقُ
بِأَفْوَاهِهِمْ، فَفِيهَا شُرُورُ
وَحُلُوقُ الْوَرَى قُبُورُ! ...» وَلَمَّا
انْقَطَعَ اللَّحْنُ وَانْتَهَى الْمَرْمُورُ
سَمِعَ الْعَاشِقُ الْمُعَذَّبُ صَوْتًا
رَجَعَتْ فِي الْعَلَا صَدَاهُ الْخُدُورُ:
«طَهَّرْتُكَ الْأَلَامُ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ
وَالْهَوَى فِي فُؤَادِكَ الْمَوْجُوعِ
وَلِيَا لِيكَ فِي ظَمَأٍ وَجُوعِ
قَدَسَتْ شُعْلَةُ السَّمَاءِ فَكَمَ الْإِنْسِيَّ

فَاحْمَدُ نَارَ السَّمَاءِ وَمَجْدُ
وَهَوَاكَ الشَّقِيَّ قَدَّسَهُ الدَّمْعُ
فَغَمَّسَهُ بِالدِّمَاءِ وَخَلَّدُ
فَجَرَ الْحَبِّ مِنْ فُؤَادِكَ شِعْرًا
أَيُّهَا الْبُلْبُلُ الصَّمُوتُ فَأَنْشُدْ!

... ..

... ..

أَيُّهَا الْفَاتِحُونَ فِي الْأَرْضِ طُرًّا
أَيُّهَا الشَّارِبُونَ كَأْسَ الدِّمَاءِ
أَيُّهَا الشَّاخِصُونَ لِلْكَوْنِ سُخْرًا
مِنْ خِلَالِ الْقَذَائِفِ الصَّمَاءِ
وَدِمَاءِ الضُّعَافِ وَالْأَبْرِيَاءِ
قَدْ عَرَفْتُمْ مَجْدَ الْعُرُوشِ الْعَظِيمَةِ
وَطَلَيْتُمْ تَيَجَّانَكُمْ بِاللُّبَّانِ
وَعَشِقْتُمْ مِنَ الْجَمَالِ نُجُومَهُ
وَأَرْتَدَيْتُمْ مَطَارِفَ الْأَرْجُوانِ
وَلَعِبْتُمْ بِالذَّهْرِ وَالتَّيْجَانِ
نُقْتُمُ الْحَبَّ فِي مَجَالِي جَمَالِهِ
بَيْنَ رَقِصِ الْأَجْسَادِ وَالْأَوْتَارِ
وَأَغْتَصَبْتُمْ حَتَّى حَرِيمِ خَيَالِهِ
مُدَّ شَبِعْتُمْ مِنْ شَهْوَةِ الْأَقْدَارِ
شَهْوَةِ الطَّيْنِ فِي خُذُورِ السَّرَارِي
وَأَفْتَتَحْتُمْ مُلْكَ الثَّرَى بِالصَّوَارِمِ
وَسَكَّرْتُمْ بِخَمْرَةِ الْإِنْتِصَارِ
وَشَرِبْتُمْ دَمَ الْوَرَى بِالْجَمَاجِمِ
وَأَخْتَصَرْتُمْ صَفَائِحَ الْأَعْمَارِ
بِيزَاعٍ مِدَادُهُ مِنْ نَارِ

نُقْتُمُ الرَّاحَ فِي اخْتِلَافِ كُتُوسِهِ
وَتَفَلَّتُمْ عَلَى يَدِ الْعَصَارِ
مَا تَرَكْتُمْ لِلشَّعْبِ غَيْرَ رُمُوسِهِ
وَوَظَمَاءِ الْأَحْشَاءِ لِلْخَمَارِ
وَسُقَاطِ الطَّلَى لِبَعْضِ الْجَوَارِي
وَعَرَفْتُمْ فِي الْمَجْدِ كُلَّ الْأَمَاكِنِ
وَقَصَارَى لَذَاتِهِ الْحَمَرَاءِ
وَعَرَفْتُمْ حَتَّى الْغُيُوبِ وَلَكِنْ
مَا عَرَفْتُمْ فِي الْمَجْدِ نُورَ السَّمَاءِ
مِنْحَةَ الْأِلَهَاتِ لِلشُّعَرَاءِ!

٢

فِي لَيْلَةٍ حَالِكَةٍ كَالْهُمُومِ
هَابِطَةِ الْجَوِّ بِثِقَلِ الْغُيُومِ
كَأَنَّهَا قَدْ حُبِلَتْ بِالرُّجُومِ
كَانَ الْفَتَى الشَّاعِرُ فِي مَخْدَعِهِ
يَبْكِي فَيَجْرِي الْقَلْبُ فِي أُنْمِعِهِ
شِعْرًا يَعِيهِ الْحُزْنُ فِي مَسْمَعِهِ
وَكَانَتِ الشَّمْعَةُ فِي حُجْرَتِهِ
تَنْزَعُ كَالْمَيِّتِ فِي سَاعَتِهِ
أَكُلُ شَيْءٍ مِثْلَهَا لَا يَدُومُ؟
وَكَانَتِ الْوَحْدَةُ كَالْمَدْفِنِ
مُوجِشَةً فِي ذَلِكَ الْمَسْكَنِ
وَقَدْ سَطَا النَّوْمُ عَلَى الْأَعْيُنِ
وَاسْتَيْقَظَ الشَّاعِرُ مِنْ سَكْرَتِهِ

وَحَوَّلَ الْعَيْنَ إِلَى شَمْعَتِهِ
 أَنْيَسَةِ الْأَشْجَانِ فِي وَحْدَتِهِ
 وَبَعْدَ أَنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ ثَوَانٌ
 كَأَنَّهَا مِنْ دَامِيَاتِ الزَّمَانِ
 قَالَ بِصَوْتٍ رَاعِشٍ مُخْزِنٍ:
 «يَا شَمْعَتِي، مَاذَا وَرَاءَ النَّزَاعِ؟
 مَا هَذِهِ الْقَطْرَةُ تَحْتَ الشُّعَاعِ
 وَلِمَ أَرَى فِيهَا اصْفِرَارَ الْوَدَاعِ؟
 فِي دَمْعِكَ الشَّاحِبِ نُورٌ يَذُوبُ
 مَاذَا تَقُولِينَ بِهِ لِلْقُلُوبِ؟
 لِمَ يَغْمُرُ الشُّعْلَةَ هَذَا الشُّحُوبُ؟
 أَيَنْتَهِي الْحُبُّ كَمَا تَنْتَهَيْنِ
 يَا شَمْعَتِي، يَا مَثَلَ الْعَاشِقِينَ
 لِدَاثُهُ تَأْتِي وَتَمْضِي سِرَاعُ؟»

* * *

وَإِذْ تَلَاشَى نَفْسُ الشَّمْعَةِ
 مِثْلَ تَلَاشِي الرُّوحِ فِي الْمَيِّتِ
 قَالَ الْفَتَى الشَّاعِرُ لِلظُّلْمَةِ:
 «يَا مَذْفَنَ الْأَنْوَارِ مَاذَا وَرَاءَ
 هَذَا الدُّجَى الْحَالِكِ، هَذَا الْغِطَاءِ
 مَاذَا وَرَاءَ اللَّيْلِ، هَلْ مِنْ ضِيَاءِ؟
 لِمَ يَنْقُضِي اللَّيْلُ وَيَأْتِي السَّحَرُ؟
 مَهْرَلَةٌ مِنْ مَهْرَلَاتِ الْقَدَرِ!»

... ..

فِي ذَلِكَ اللَّيْلِ الْعَصِيبِ الطَّوِيلِ
تَذَكَّرَ الشَّاعِرُ عَهْدًا جَمِيلًا
لَمْ يَرِ مِنْهُ غَيْرَ شَطْرِ ضَيْلٍ
إِذْ كَانَ فِي مَيْعَتِهِ النَّاعِمَةِ
يَحْلُمُ بِالسَّعَادَةِ الدَّائِمَةِ ...
خَابَ رَجَاءُ الْأَنْفُسِ الْحَالِمَةِ!
يَا خَافِقًا، أَلِلْهُ مَا أَوْجَعَكَ!
مَا أَبْخَلَ الدُّنْيَا وَمَا أَطْمَعَكَ!
تُعْطِي وَلَا تُمْنَحُ حَتَّى الْقَلِيلِ

* * *

فِي ذَلِكَ اللَّيْلِ ... وَمَا أَظْلَمَهُ!
ذِكْرُ الصَّبَا فِي الْأَكْبَدِ الْمُغْرَمَةِ
وَنُورُهُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ
تَذَكَّرَ الشَّاعِرُ فَجَرَ الشَّبَابِ
وَذَلِكَ الْوَادِي وَتِلْكَ الْهَضَابِ
وَعَوْدَةُ الْقُطْعَانِ عِنْدَ الْغِيَابِ
وَوَالِدًا مَرَّ مُرُورَ الشَّبَحِ
كَأَنَّهُ يَوْمَ صَفَاءٍ سَنَحِ
فَقَالَ: «يَا قَلْبِي، إِلَى الْجَلْجَلَةِ
حَمَلْتَ آمَالَ الصَّبَا الْمُثْقَلَةِ
وَلَمْ تَدْعُ مِنْهَا سِوَى الْأَخِيلَةِ
لِأَجْلِ غُلُوءٍ وَأَجْلِ الْعَذَابِ
كَتَبْتَ لِي فِي الْحُبِّ هَذَا الْكِتَابِ
يَا شُعْلَةً مَحْجُوبَةً بِالْهَضَابِ
يَا قَلْبِي! ...»

* * *

إِذَا بِهِ، فِي الْحُجْرَةِ الْمُظْلِمَةِ،

يُضْغِي إِلَى حَشْرَجَةٍ مُؤْلَمَةٍ
بَيْنَ خُفُوقِ الْقَلْبِ وَالتَّمْتَمَةِ
وَرَاءَ فِي قَلْبِ الدُّجَى وَالِدَهُ
يَغِيْمُ فِي شَفَافَةٍ صَاعِدَهُ
مِنْ صُلْبِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ
كَأَنَّهَا، وَهِيَ تَشُقُّ الْقَتَامَ،
لَوْحَةً فَجَرٍ فِي إِطَارِ الظَّلَامِ
أَوْ وَمُضَةٍ مِنْ شُعْلَةٍ مُبْهَمَةٍ

* * *

قُدِّسَتْ يَا غَيْبَوْبَةَ الشَّاعِرِ
رُؤْيَا كَمَرِ الْحُلُمِ الطَّاهِرِ
أَوْ كَالْهَوَى فِي عَهْدِهِ السَّاحِرِ
قُدِّسَتْ فِي أَحْلَامِكَ الشَّاحِبَةِ
قُدِّسَتْ فِي آلَمِكَ الدَّائِبَةِ
فِي رُوحِكَ الْحَاضِرَةِ الْغَائِبَةِ
فِي كُلِّ مَا تَحْمِلُ مِنْكَ الْعُيُونُ
فِي سَوْرَةِ الْحُبِّ وَسُكْرِ الْجُنُونِ
وَفِي اخْتِلَاجِ الْخَافِقِ الْحَائِرِ
فِي جَوْفِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ
كَأَنَّهَا ضَمَائِرُ جَاحِدَةٍ
تَخْطُرُ فِيهَا فِكْرَةٌ حَاقِدَةٍ
وَلِلرِّيَّاحِ الْهُوجِ بَيْنَ الْوَرَقِ
عَزْفٌ كَأَنَّ الْجِنَّ فِيهِ زَعْفٌ
فَمَزَّقَ الْأَرْوَاحَ ثُمَّ انْطَلَقَ
تَحَرَّكَ اللَّيْلُ وَقَالَ الْخَيَالُ:
«مَنْ لَيْسَ يَبْكِي فِي اللَّيَالِي الطَّوَالِ
وَلَا يُدْمِي الْمُقْلَةَ السَّاهِدَةَ

مَنْ لَمْ يَذُقْ فِي الْخُبْزِ طَعْمَ الْأَلَمِ
وَلَمْ يُنْكِرْ وَجَنَّتِيهِ السَّقَمُ
وَتَسْلُخِ الْأَوْجَاعِ مِنْهُ حِطْمُ
مَنْ لَا يَرَى فِي الشَّمْسِ طَيْفَ الْغُرُوبِ
وَيَسْمَعُ اللَّيْلَ اخْتِلَاجَ الْقُلُوبِ
وَيَرُصُّدُ الشَّمْعَةَ حَتَّى تَذُوبَ
مَنْ لَمْ يُغْمَسْ فِي هَوَاهُ دَمَهُ
مَنْ يَمْنَعُ الْأَهْوَالَ أَنْ تُطْعِمَهُ
وَلَا يَرَى فِي كُلِّ جُرْحٍ جَكْمُ
مَنْ لَيْسَ يَرْقَى ذُرُوءَ الْجَلْجَلَةِ
وَلَمْ يُسَمِّرْ فِي الْهَوَى أَنْمَلَهُ
وَيُزْفِعُ الْعَلَقَمُ وَالْحَلُّ لَهُ
مَنْ يَصْرِفُ الْعُمْرَ عَلَى الْمَحْمَلِ
وَلَا يَذُوقُ الْبُؤْسَ فِي الْأَوَّلِ!
وَلَا الْأَسَى فِي مَخْدَعِ مُقْفَلِ
لَنْ يَعْرِفَ الْعُمْرَ شُعَاعَ الْإِلَهِ
وَلَنْ يَرَى أَمَالَهُ فِي رُؤَاةِ
بَلْ عَالَمًا يَخْبِطُ فِي مَهْرَلَةٍ!»

* * *

وَأَنْسَحَبَ الطَّيْفُ إِلَى ظُلْمَتِهِ
يَجْرُ بِالْأَذْيَالِ مِنْ وَمَضَتِهِ
عَيْنَ الْفَتَى الْغَرْقَى بِغَيْبُوبَتِهِ
حَتَّى إِذَا سَادَ السُّكُونُ الْمُخِيفُ،
وَكَانَ فِي الْخَارِجِ صَوْتُ الْحَفِيفِ
يَعْلُو شَدِيدًا مِنْ غُصُونِ الْخَرِيفِ،
أَفَاقَ مِنْ سَكْرَتِهِ الشَّاعِرُ
وَقَالَ: «هَلْ يُرْجَى لَهُ آخِرُ

هَذَا الدُّجَى الْغَارِقُ فِي ثَوْرَتِهِ؟

* * *

قَدْ يَحْمِلُ الْفَجْرُ عِزَاءً إِلَيَّ
 إِنْ حَمَلَ النُّورَ إِلَى مُقْلَتِي
 فَالْلَيْلُ قَدْ أَخْنَى عَلَى كَاهِلِي
 يُخَيِّفُنِي اللَّيْلُ بِأَرْوَاحِهِ
 تَائِرَةً كَالْهَوْلِ فِي سَاحِهِ
 وَبِالرُّؤَى مِنْ بَيْضِ أَشْبَاحِهِ
 لَا أَنْشُدُ الْبُؤْسَ وَلَا أَرْغَبُ
 فِي حَمَلِ حُبِّ قَوْمِهِ عَذُّبُوا
 فَالْحُبُّ فِي الْأَلَامِ ثَقُلُ عَلَيَّ
 يُخَيِّفُنِي فِي مَخْدَعِي الْبَارِدِ
 خَيَالُ حُبِّ مُبْهَمٍ جَامِدِ
 أَبْكُمْ كَالْأَزْمَاسِ، يَا وَالِدِي
 يُخَيِّفُنِي اللَّيْلُ فَأَيْنَ السَّحَرِ
 يَطْرُدُ مِنْ عَيْنَيَّ هَذِي الصُّورِ
 وَمَا عَلَيْهَا مِنْ شَقَاءِ الْبَشَرِ؟»

... ..

... ..

كَانَ الدُّجَى لَمَّا يَزَلُ تَائِرًا
 وَالرَّيْحُ تُدْمِي الْأَفْقَ الْمَاطِرًا
 بِالْبَرْقِ، جُرْحِ الْمَلَا الْخَالِدِ
 كَأَنَّ لِلَّيْلِ هَوًى حَائِرًا
 ذَاقَ الْأَسَى فَلَمْ يَزَلْ سَاهِرًا

العهد الرابع

الغفران

١

مَضَتْ أَشْهُرُ نُذِرَتْ لِلْمَطَرِ
وَأَظْلَمَ فِيهَا الْمَسَا وَالسَّحَرُ
وَأَقْبَلَ نَوَّارُ عُرْسِ الطَّبِيعَةِ
يَضْحَكُ فِي وَرَقَاتِ الشَّجَرِ
يُدْغِدِغُ بِالطَّلِّ عُشْبَ الْحُقُولِ
وَيَطْبَعُ أَلْوَانَهُ فِي الزَّهْرِ
وَيَبْنِي عَلَى الْهَضَبَاتِ مَتَاجِفَ
تَسْخَرُ مِنْ هَذَيَانِ الْبَشَرِ
كَأَنَّ عِبَاقِرَةَ الْجِنِّ فِيهَا
سَكَنَ وَعَلَقْنَ تِلْكَ الصُّوَرُ
فَخَفَّ الشَّبَابُ نَدْيَ الْحَيَاةِ
يَسْتَقْبِلُ الْحُلُمَ الْمُنتَظَرُ
عَلَى ثَغَرِهِ بَسَمَاتُ الرَّبِيعِ
وَفِي قَلْبِهِ بَسَمَاتُ أَخَرِ

... ..

... ..

وَفِي يَوْمٍ عِيدٍ نَقِيَّ السَّمَاءِ
كَأَنَّ السَّمَاءَ صَفْحَةً مِنْ سُورٍ
أَطْلَّ شَفِيقٌ عَلَى الْهَضَبَاتِ
فَرَاءَ الشَّبَابِ عَلَيْهَا انْتَشَرَ
وَأَبْصَرَ غُلُوءًا بَيْنَ الزُّهُورِ
كَحَوَّاءَ بَيْنَ شَهْيِ الثَّمَرِ
تُسْرِخُ فِي عَدْنِهَا نَظَرَاتٍ
عَرَفْنَ أَزَاهِيرَ خَيْرٍ وَشَرٍ
وَقَدْ لَبِسَتْ ثَوْبَهَا الزُّنْبُقِي
عَلَيْهِ نَسِيجُ بَلَوْنِ الْخُضْرِ
وَأَلْقَتْ عَلَى الْعُشْبِ جِسْمًا هَزِيلًا
كَغُضْنٍ مِنَ الْيَاسَمِينِ انْكَسَرَ
فَخَفَّ إِلَيْهَا وَفِيهِ عَذَابٌ
بَدَأَ مِنْهُ فِي مُقْلَتَيْهِ أَثَرٌ
وَقَالَ: «لَقَدْ خَلَعَ الْحَقْلُ عَنْهُ
رِدَاءَ الشِّتَاءِ وَغَطَّى الْحَجَرُ
وَأَلْقَى عَلَيْهِ الرَّبِيعُ وَشَاحًا
جَمَالَ الطَّبِيعَةَ فِيهِ انْخَصَرَ
فَهَلَّا خَلَعَتْ رِدَاءَ اللَّيَالِي
وَأَلْبَسَتْ رُوحَكَ ثَوْبَ الْبُكَرِ
وَهَلَّا تَشَبَّهَتْ بِالْيَاسَمِينِ
فَمَا كَادَ يُحْجَبُ حَتَّى ظَهَرَ
لَقَدْ غَسَلَتْ بِسَمَاتِ الزُّهُورِ
ذُنُوبَ الشِّتَاءِ الْكَفِيفِ الْبَصَرِ
وَعَادَ الْعَفَافُ إِلَى الْهَضَبَاتِ
فَفِي كُلِّ غَرْسٍ فُؤَادٌ غَفَرُ»

فَقَالَتْ: «أَحَاوِلْ أَنْ أَتَنَاسَى
رَمَانًا مَضَى وَخَيَالًا عَبْرًا!»
فَقَالَ: «وَمَاذَا يُمَثِّلُ هَذَا الْخَيَالُ؟»
فَقَالَتْ: «غَرَامًا عَثُرُ»
فَقَالَ وَقَدْ جَحَظْتُ مُقْلَتَاهُ:
«وَهَذَا؟» فَقَالَتْ: «حَبِيبًا غَدَرُ»
وَهَذَا الْحَبِيبُ؟ غَفَرْتُ لَهُ
وَيَعْفُو إِلَهُكَ عَمَّا بَدَرُ
غَفَرْتُ كَمَا غَفَرْتُ فِي الرَّبِيعِ
زُهورُ الرَّبِيِّ لِشِتَاءِ كَفَرُ
وَلَكِنَّ بِي نَدَمًا كَاللَّهْيَبِ
يُرِينِي الْحَيَاةَ خِلَالَ الشَّرَرِ
وَكَانَ النَّسِيمُ يَهْزُ الْغُصُونُ
فَتَنْشُرُ فِي الْجَوِّ عَطَرَ الزُّهُورِ
كَأَنَّ الْعُطُورَ خَطَايَا عَذَارَى
حَلَمْنَ بِأَثْمَارِهَا فِي الْخُدُورِ
وَلَمَّا أَفْقَنَ اعْتَرَفْنَ بِهَا
وَقَدْ هَزَّهْنَ الضَّمِيرُ الطَّهْورُ
وَكَانَ الْمَسَاءُ عَلَى الْهَضَبَاتِ
يَنْفِثُ أَشْبَاحَهُ فِي فُتُورِ
وَسَمْسُ الْمَغِيبِ تُعِيرُ الظُّلَالَ
أَلْوَانَهَا فِي مَطَاوِي الصُّخُورِ
فَقَالَ شَفِيقٌ، وَفِي قَلْبِهِ
رَجَاءٌ يَمُوتُ وَحُبٌّ يَنْتُورُ:
«عَشَقْتُكَ، يَا غُلُو، عِشْقًا نَمَا
شَقِيَّ الرُّوَى فِي شَوَاطِي صُورِ
وَكُنْتُ مِنَ الدَّاءِ فِي نَشْوَةِ

تُرِيكَ الْحَيَاةَ ظِلَامًا وَنُورَ
 جَهْلَتِ الْهَوَى فَنَكَرَتِ الرَّبِيعَ
 وَقَدْ تَنَكَّرِينَ نُمُوَ الْبُذُورِ
 وَمَنْ لَمْ يُقَدِّرْ لَهُ أَنْ يَشْمَّ
 يَنْكُرُ حَتَّى أَرِيحَ الْعُطُورَ
 فَقَالَتْ: «صَدَقْتَ وَلَكِنِّي
 أَحَسُّ بِقَلْبِي جَفَافَ الْجُذُورِ
 فَأَنْتَ تَرَى فِي الرَّبِيعِ الْجَمَالَ
 وَأُبْصِرُ أَزْهَارَهُ كَالْبُذُورِ
 وَتُبْصِرُ فِي الزَّهْرِ لَوْنَ الْحَيَاةِ
 وَأُبْصِرُ فِي الزَّهْرِ لَوْنَ الْقُبُورِ»

٢

... ..

وَأَهْوَى عَلَى صَدْرِهَا بَاكِئًا
 وَأَهْوَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِئَةً
 وَمَا هِيَ إِلَّا نَقَائِقُ حَتَّى
 تَلَاشَتْ رُؤَى نَفْسِهَا الدَّائِمَةِ
 فَأَدْنَتْ إِلَى ثَغْرِهِ ثَغْرَهَا
 عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ تَقَى الرَّابِيعِ
 عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ نَقَاءِ الزُّهُورِ
 الْعَذَارَى وَمِنْ عِفَّةِ السَّاقِيَةِ

* * *

وَإِذْ صَعِدَ الْبَدْرُ خَلْفَ الْجِبَالِ
وَذَابَ عَلَى الرُّبُوعِ الْعَالِيَةِ
وَهَوَّمتِ الطَّيْرُ بَيْنَ الْغُصُونِ
لِتَحْلُمَ أَحْلَامَهَا الصَّافِيَةِ
وَلَمْ يَبْقَ يُسْمَعُ فِي الْحَقْلِ إِلَّا
تَنَهَّدُ شَبَابَةِ الرَّاعِيَةِ
أَفَاقَ الْحَبِيبَانِ مِنْ سَكْرَةِ الدُّمُوعِ
إِلَى سَكْرَةِ ثَانِيَةِ
وِظَلٍّ مِنَ السُّكْرِ فِي نِزَوَاتٍ
تُطَهِّرُهَا عِقَّةُ بَاقِيَةِ
إِلَى أَنْ دَنَا مَوْعِدُ الْفِرَاقِ
وَاصْفَرَّتِ الْأَنْجُمُ السَّاهِيَةِ
كَأَنَّ النُّجُومَ الضَّيِّلَةَ فِي الْأَفْقِ
رَشَّحَ خُمُورٍ عَلَى خَابِيَةِ
كَأَنَّ النُّجُومَ زَفِيرُ خَطَايَا
تُصَعِّدُهُ لَيْلَةُ زَانِيَةِ

٣

«أَشْعَّةٌ مِنْ مُقْلَتَيْكَ مُلْهَبَةٌ
يَا أَلْمِي، تَجْعَلُ نَفْسِي طَرِبَةً
أَشْرِقَ عَلَى قَلْبِي بِهِيًّا نِيرًا
فَيُورِقَ الشُّوكُ بِهِ وَيُزْهِرَا
يَا هَيْكَلًا كُفَّاهُ الْقُلُوبِ
بَخُورُهُ الْأَدْمُعُ وَالشُّحُوبُ

أَسْمَعُ أَجْرَاسَكَ مِنْ بَعِيدٍ
 فَهِيَ تُنَادِينِي إِلَى السُّجُودِ!«
 وَدَقَّ نِصْفُ اللَّيْلِ فِي السُّكُونِ
 فَاخْتَلَجَ الشَّاعِرُ كَالظُّنُونِ
 وَقَالَ: «إِنَّ تَعَبَ الضَّمِيرِ
 يَصْعَدُ مِنْ مَجَاهِلِ الْقُبُورِ
 يَا لَيْلُ، يَا مَسَارِبَ الْفَوَاجِعِ
 يَا قَرَبَ الدِّمَاءِ وَالْمَدَامِعِ
 كَمْ مِنْ خَلِيٍّ فِيكَ يَسْتَرْحُ!
 وَكَمْ شَقِيٍّ بَائِسٍ يَنْوُحُ!
 ارْقُدْ قَرِيرَ الْعَيْنِ يَا خَلِيَّ
 وَأَنْتَ فَاشُقْ أَيُّهَا الشَّقِيَّ
 فَالَلَّيْلُ مَلِكُ الْمُتَرَفِّ السَّعِيدِ
 وَمَلِكُ كُلِّ تَعِيسٍ شَرِيدِ!»

... ..

... ..

... ..

... ..

غَلَوَاءُ، يَا نِبْرَاسَ قَلْبِي الْبَائِسِ
 يَا أَمَلًا فِي ظُلُمَاتِ الْيَائِسِ
 يَا مَرْهَمًا لِقَلْبِي الْمَوْجُوعِ
 يَا مَلَكًا يَطُوفُ فِي دُمُوعِي
 أَحِبُّ فِيكَ صُورَةَ عَذْرَاءَ
 وَإِنْ تَكُنْ أَصْبَاغُهَا شَوْهَاءَ
 يَا صُورَةَ تَجْرِي بِهَا السَّعَادَةُ
 الْحُبُّ فِيهَا دُونُهُ الْعِبَادَةُ
 يَا أَرْجَ الْمُرُوجِ وَالْأَكَامِ

يَا وَتَرًا أَسْمَعَنِي أَنْغَامِي
مَجَّدْتُ أَلَمَكَ فِي الزُّهُورِ
فِي وَهَجِ الْأَنْوَارِ، فِي الطُّيُورِ
فِي بَسَمَاتِ الصُّبْحِ، فِي الْأَصَائِلِ
فِي الْقَمْحِ، فِي تَمُوجِ السَّنَابِلِ
فِي أَدْمَعِ الْيَتِيمِ وَالْيَتِيمِ
فِي صَرْخَةِ الْبَرِيِّ وَالْمَظْلُومِ
يَا زَهْرَةً تَائِبَةً مُقَدَّسَةً
يَا خُبَرَ قُرْبَانَةِ نَفْسِي التَّعَسَّةِ
أَحْمَدُكَ الْيَوْمَ كَأَمْسٍ وَعَدَا
وَكُلَّمَا غَابَ النَّهَارُ وَبَدَا
وَكُلَّمَا بَلَلْتُ بِالْدُمُوعِ
شِعْرًا شَقِيًّا قَدْ مِنْ ضُلُوعِي!

* * *

... وَقَدْ أَحَسَّتْ فِتْرَةَ بَرُوجِهَا
تَطَّرِحُ الْأَوْهَامَ مِنْ جُرُوجِهَا
وَرَفَعَتْ إِلَيْهِ عَيْنًا ذَائِبَةً
كَأَنَّهَا صُورَةُ نَفْسٍ تَائِبَةٍ
لَكِنَّهَا عَادَتْ إِلَى جُنُونِهَا
وَنَارَتِ النَّيِّرَانُ فِي عُيُونِهَا
وَكَانَ قَدْ أَوْشَكَ أَنْ يُقْبَلَ
جَبِينُهَا الْمُضْطَرَبُّ الْمُشْتَعِلُ
حِينَ اسْتَحَالَتْ جَمْرَةً مُلْتَهَبَةً
تَرَاجَعَتْ عَنْهُ خُطَى مُضْطَرِبَةٍ
وَبَعْدَ فِكْرٍ قَالَتْ: «الْحَيَاةُ
عَقَارِبُ مِنْ جَسَدِي تَقْتَاتُ
دَعْنِي، فَلَا أَبْرَحُ يَا حَبِيبِي

أَعِيشُ فِي مَاضِيٍّ، فِي ذُنُوبِي
 فِي حَمَاءِ الضِّمِيرِ، فِي أَوْجَاعِي
 فِي بُؤْرَةِ الدِّيدَانِ وَالْأَفَاعِي
 أَيْسْتَطِيعُ الطَّيِّبُ فِي الْقَارُورَةِ
 أَنْ يَغْسِلَ الْأَوْسَاحَ فِي الْقَادُورَةِ
 دَعْنِي، وَخَلِّ نَفْسَكَ الْعَذْرَاءَ
 عَذْرَاءَ لَا تَرْجِسُ فِي غُلُوءِ
 وَاسْتَرْجِعِ الْقُبُلَاتِ مِنْ حَدِيًّا
 مَغْفِرَةً ثَقِيلَةً عَلَيَّا!
 فَقَالَ: «إِنَّ دَمْعَةً تَطَهَّرَتْ
 تَكْفِي لَغَسْلِ النَّفْسِ مَهْمَا قَذَرَتْ
 فَادْمُغِ التَّوْبَةَ وَالْغُفْرَانَ
 أَقْدَسُ، يَا غُلُوءَ، مِنَ الْقُرْبَانِ
 فَهِيَ حَمِيرُ الْأَلَمِ الْمَعْجُونِ
 وَفَلَنَدَةُ الْقُلُوبِ فِي الْعُيُونِ
 وَسُبْحَةَ النُّفُوسِ فِي الْعَذَابِ
 تَجْمَعُ فِي سِلْكٍ مِنَ الْأَهْدَابِ
 وَهِيَ عَصِيرٌ مِنْ لُبَّانِ طَاهِرٍ
 تَعْقُدُهُ الْأَلَامُ فِي الْمَحَاجِرِ
 وَلَوْلُوْ فِي قَعْرِ بَحْرِ خَاطِي
 يَفْقِذُهُ الْمَوْجُ إِلَى الشَّوَاطِي»

* * *

مَرَّتْ نَوَانُ كُلُّهَا أَخْلَامُ
 لَمْ يَتَخَلَّلْ سُكْرَهَا كَلَامُ
 كَانَ بِهَا الْاِثْنَانِ يُصْغِيَانِ
 إِلَى نِزَاعِ الْأَلَمِ السَّكْرَانِ
 إِذَا بِهِ يَقُولُ: «يَا غُلُوءَ»

العهد الرابع

هَذَا الشُّقَا تَبَارَكَ الشُّقَاءُ
هَذَا الشُّقَا، يَا غُلُو، يَا حَبِيبَتِي
يَا أُخْتُ، يَا عَرُوسَ، يَا رَفِيقَتِي

